الفصل الرابع

اليهود فى عقل جمال حمدان

اليهود أنثروبولوجيا أى «اليهود من الناحية الأنثروبولوجيا» هو عنوان الكتيب الذى ألّفه هذا العبقرى الفلتة ، جمال حمدان . ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيرًا من أفكاره وآرائه ولا يمكن إلا فى إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية. وقد نشر الكتاب فى طبعه ثانية فى كتاب الهلال بعنوان «اليهود». وفيمايلى المقدمة التى كتبناها لهذا الكتاب (وأرقام الصفحات التى ترد فى هذه الدراسة هى أرقام صفحات هذه الطبعة).

هذا الكتيب ، مثل كل كتابات جمال حمدان ، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمة ، أى الدراسة التى يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دونما سبب واضح ولا تتسم بأى شئ سوى أنها «صالحة للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنعنات علمية موضوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء . والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التى يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثًا» عن أى شئ) هو زيادة عدد الدراسات التى تضمها السيرة

العلمية للأكاديمى صاحب الدراسة ، فتتم ترقيته ، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية . قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام ، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر ، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر ، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب . ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التى تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شئ ليزداد لمعانًا وتألقًا ، إلى أن يُعيَّن رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشئ الأكاديمى ، يتحرك فى عالم خال من أى هموم إنسانية حقيقية - عالم خال من نبض الحياة : رمادية كالحة هى هذه المعرفة الأكاديمية ، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة .

النموذج المعلوماتى التراكمى :

كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى ، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف» لا يكتب إلا انطلاقًا من لحظة معاناة وكشف . وهو لا شك يتَّبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة ، ولكن الآليات ، والوسائل لا تتحول أبدًا إلى غايات ، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل ، والهدف يظل دائمًا هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل .

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هي دراسات إشكالية ، محاولة للإجابة عن سؤال ما ، وتصب كل الأسئلة فى مشروع فكرى واحد ، محوره مصر . فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً مثل عدد لا يُستهان به ممن يُسمون بالمفكرين فى بلادنا ، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة ، عادةً من الغرب «أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب .. ولا شئ سواه ، وهى النظرة الاستعمارية التى سادت طويلاً ، والتى تركز على أن الدنيا هى أوربا Euro Centric ولأن على أوربا وأمريكا معًا Atlanto centric أو الغرب بعامة west centric (ثلاثية حمدان تأليف الدكتور عمر الفاروق، ص ٢٣) . صاحب الفكر هو إنسان قد طوَّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلى (فهى تعبر عن قلقه وآماله) ، ويكمن وراءها نموذج معرفى واحد رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار ، فهو إنسان ينقل أفكارًا متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط ، وتنتمى كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة . وما يحدث فى كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها ، دون إدراك للنموذج المعرفى الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته ، فمهمتهم هى النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) – نقل كل شئ بأمانة شديدة وحياد أشد ، وموضوعية متلقية هى فى واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية ، والقدرة على الاجتهاد . فى هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب ، ويختفى المنظور

النقدى، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنبًا إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهرى منها والهامشى . ونقـــل الأفكـــار ورصـــها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيرًا عن نقل المعلومات ومراكمتـها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الـذى نبعت منه . لذا فمثل هذه الدراسات «قد تنقل عمدًا أو عن غير عمـد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسيًا» (كما يقول جمال حمدان ص ٧) وهكذا يتحـول المثقفون إلى أعضـاء فى شركات نقـل الأفكار الـتى لا تختلف كثيرًا عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع .

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكميـة الـتى استشرت تمامًا فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمى مـن خلالها (استبيانات - جداول - تحليل سطحى للمضمون - استطلاع رأى - أرقام) . ولا شك أن غياب المشروع الحضارى المستقبلى يزيـد من انتشار هذا النموذج ، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل ، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلاً لمحاولـة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته . وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا ، ومن هنـا التلقـين ، والدروس الخصـوصية التى لا تعلم الطـالب شـيئا ، إذ إن المـهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة احتياز الامتحانات .

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع ، وتـدور فى إطار الموضوعية المتلقية ، السلبية ، العقل عندها آلة ترصد وتسـجل ،

وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم ، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تمامًا فى الحقائق والوقـــائع والأفكـــار المتنـــاثرة ، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصـــة، كم لا هوية له ، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناهـــا الخـــاص . وكما يقول جمال حمدان: «نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشـــرة أو غـــير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه : فـــالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقـــة ما من سلالة يهود فلسطين الثوراة .. إلخ . وفى هذا الإطار التحريـــدى الضيق [أى الاختزالى] أو المتعجل غير المتأنى .. تبدو صـــورة العـــدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، وتبدوا أحيانا - أكاد أقـــول - كما لو كنا نطارد شبحا» (ص ٦) .

ثنائية تكاملية :

وبدلا من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية ، يقترح جمـــال حمدان «دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشـــرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا» (ص ٦) ، بدلا مـــن الاختزال التركيب ، وبدلا من التلقى الإبداع ؛ وبدلا مـــن التفـــاصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية . تبدأ هذه الرؤية بتعريف

(أو إعادة تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين) ، إن البحث المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها) . فالجغرافيا «هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)» . هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام . يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة ، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هى التعرف على «شخصية الأقاليم» . يقول ذلك وهو يعرف تماماً أنه قد ولج عالماً مختلفاً ، «فالشخصية الإقليمية» شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم ، إنها تتساءل أساساً عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق ، وتريد أن تنفذ إلى «ورح المكان» لتستشف «عبقرية الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة» . عالم الكم هو عالم الأشباح التى لا بدن لها ولا قوام ولا روح . ولأنها لا بدن لها نجدها تقيم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها . وهى أيضاً لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان. هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه ، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى . ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح ، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادى ينتمى لعالم المادة ، وقوانين الحركة . بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح فيه ، التى يصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميِّز (من ملبس ومأكل وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن

مكان لآخر ، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم الحضارة الإنسانية بثرائها وخصوصيتها .

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجينة الكم ، فهى لا تقبع قط فى الآن وهنا وحسب ، وإنما تتجاوزها ، «فهى تترامى بعيدا عبر الماضى وخلال التاريخ . لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية » (شخصية مصر ، ص٣) .

ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان : فهو يرفض أحادية البعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته . وكما يقول : «حق لنا أن نبقى تفاصيل التفاصيل .. ولكن أحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه ، وإنما علينا أن نتجاوزها ، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات وإلى جانب النظرة التحليلية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية واسعة الأفق» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٩) . ولكن الثنائية التى يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية : كم يتكامل مع كيف كيف تتكامل مع التاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام. والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يؤدى إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يؤدى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى . وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمته وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف تاريخ زمان

روح) . وكما يقول جمال حمدان : «البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء ، ولكنها تنطق من خلال الإنسان . وربما تكون الجغرافيا صماء ، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض ، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان» (شخصية مصر ، ص٤) .

بيئة خرساء وجغرافيا صماء . هذا هو عالم الواحدية المادية (الدراسات الموضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل إنسان ينطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان) . والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقى بظله عليها على الأرض . ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان أن يبتلعهما ، ولذا فالأرض تلقى هى الأخرى بظلالها على الزمان الإنسانى .

المحصلات الرياضية :

هذه الثنائية الأساسية هى التى جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى ، والذى قوض دعائم الإبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكرا ماديا حتميا مملا يقضى على الإنسان يلقى بظلاله الكثيفة الكئيبة عليه حتى يخفيه تماما ، أعنى فكرة وحدة العلوم التى أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم . وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ،

فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافاً فى الجوهر والنوع والكيف ، وإنما هو اختلاف فى التفاصيل والدرجة والكم ، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان ، ولذا فلابد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسوك الإنسان والنمل . وقد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحةً (فمن منَّا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن فى منطلقاتهم المعرفية . يرفض جمال حمدان هذا المنطلق المادى المصمت المعادى للإنسان :«فالجغرافيا الكاملة الكامنة لا تحقق فى شئ كما تحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية .. والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماماً للقياس الرياضى والإحصاء ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساساً .. على مادة علمية موضوعية بحتة . إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى» . وهو لا يجد فى هذه الثنائية أى تعارض ، فالجغرافيا «فلسفة المكان .. فلسفة عملية واقعية .. ترتفع برأسها فوق التاريخ .. وتظل أقدامها راسخة فى الأرض» . وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدراً من التكاملية – وهو سيد مثل هذه العبارات – يقول حمدان : «فلسفة تحلق بقدر ما تحدق» . الجغرافيا فى نهاية الأمر «علم ... وفن وفلسفة فى ذات الوقت : علم بمادتها ، فن بمعالجتها ، فلسفة بنظراتها» . كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى) ، «فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا

بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير ، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة» (شخصية مصر ص ٦) وما بين الرص التراكمي والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقي لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ في التصاعد (حتى وصل مؤخرا إلى أبعاد لا يمكن تخيلها) . لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيؤ المطبق ، وبأن عالم الكم والأشباح يزداد اقترابا واتساعا فقرر أن يحمي علمه وإبداعه ، لأنه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا إبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهي أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعي الحتمي الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادي واحد . فتختفي الثنائيات والخصوصيات ويختفي عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التي تشبه الهامبورجر أو النظام العالمي الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة إلى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم ، كل الناس فيه سواسية كأسنان المشط البلاستك المستورد أو المصنوع محليا . جمال حمدان لا يطيق هذا ، فعالمه عالم إنساني ثري جميل مورق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة ، فهو يرفض الوحدة العضوية المصمتة التى تدور فى إطار الرؤى المادية وتشيؤ الظواهر ، وتجعلها كلا متجانسا أملس . بل إنه يؤكد البعد الإنسانى فى مبدأ الوحدة ذاته: «إن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتى . فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس ، أى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة .. ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية ، والوحدة فى أى مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى ، فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميى عقيم ؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ «التنوع فى الوحدة» أو «الوحدة فى التنوع» (شخصية مصر ، ص ١٣) .

سيدة الحلول الوسطى

هذا المنهج يتبدى تماما فى رؤيته لمصر ، فهى نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (ائتلافا واختلافا) : الموضع والموقع ، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية ، هى فلتة ولكنها ليست وثنا، ولم يكن هو عاشقا وثنيا لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد فى محراب مصر ، ولذا فهو يرفض السقوط فى ميتافيزيقا المكان المصرى (أو أى مكان آخر) فيقول: «كثير من هذه السمات تشترك

فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة» (شخصية مصر ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محبا لمصر ، والحب «أسرار » كما يعرف كل من عرف الحب الحق ، وأن تبوح به هو فى حكم المحال ، إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية . ولكن العالم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماما ، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقا أنه لن يكشفه ، ولن يسويه ، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والإفصاح لن يجففا بحر الحب وعيون المحبة ! ولذا فالعالم الذى يؤسسه ليس علما رصديا ترشيحيا برانيا نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها . أو كما يقول «إن الدراسة الإقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات ، غير أنها قل أن تتقبض على روح المكان أو تجسد العبقرية بإحكام ، إنها تشرح الإقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحى بروح الإقليم» (ثلاثية حمدان ص ٢٩) تزهقه تماما . وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علم مبنى على الحب ، علم يحلق ويحدق« يتحرك من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٩) ؛ يدرك السطح البران بتفاصيله والعمق الجوان بأبعاده ؛ يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس . «لذا لا ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا ، يكفى أن نقول تجانسا نسبيا» . «وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية» (التى يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم) ، فمن

الواضح «أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عـــروق مصـــر وصبت فى شرايينها وليس من الدقة العلمية فى شئ أن نصور مصـــر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله ، فليس هناك أطر ثابتـــة إلى الحد كأنها أقفاص حديدية» (شخصية مصر ، ص ٣٢) .

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والنحـــانس الواحدى المطلق ، عالم الأشباح إياه . ومصر التى يحبها ليســـت شـــيئا ماديا ، جغرافيا محضا ، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان . هـــى مجموعة من الثنائيات التى لا تذوب ولا تختزل فى كل واحدى مصمت – «هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكـــون هنـــاك تماما ، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم .. وإذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس لأنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما لأنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية ، بين أبعاد وآفاق واسعة ، بصورة تؤكـــد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى» تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمـــة نصفا» ! (شخصية مصر ، ص ٨ – ٩) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه «فرعونية بالجد .. عربيـــة بـــالأب» (شخصية مصر ، ص ٨) . ولكنها ثنائية تكاملية ، وليست ازدواجيـــة «فالأب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك» . غير أن العرب هنا

وقد غيروا ثقافة مصر ، هم «الأب الاجتماعى» فى الدرجة الأولى ، وليسوا «الأب البيولوجى» إلا فى الدرجة الثانية» (شخصية مصر ، ص ٢١٣) . فالتعريب الإسلام .. «هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا ، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى» (شخصية مصر ، ص ٢٠٨) . وبالنسبة لجمال حمدان يعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية . «فبعد التعريب أصبحت [مصر] جزءا لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا إقليما أو رأسا فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية» (شخصية مصر ، ص ٢٠٨) .

والاستعارات أو الصور المجازية التى سيستخدمها جمال حمدان تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية» . فنحن نحب الجد ونتذكره ، أما الأب فنحن ننتمى إليه ، ونسير معه خاصة وإذا كان الأب العربى هو «آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية» ، خاصة إن الجد قد ابتعد كثيرا ، فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) «لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها ، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية» (شخصية مصر ، ص ٢٠٧) . ولذا يحذر جمال حمدان دعاة «الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجيعة التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والآشورية) فالمقصود من هذه الدعوات نفى القومية

العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة» (شخصية مصر ، ٢١٤) . كما يحذر من دعاة الاستمرارية فى الكيان المصرى « لا ليبرز أصالة ما ، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع ، وبالتالى ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها » (شخصية مصر ، ص ٢٠٨- ٢٠٩) .

ومصر التى فى خاطره وفى فمه ، وسيدة الحلول الوسطى ، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة « بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى » (شخصية مصر ، ص ٩) . وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة . ثم هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر : بقية العالم .

ولنبدأ بالدائرة الأولى أى الدائرة العربية . « الإطار العربى [حسب تصور حمدان] ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته » (شخصية مصر ، ص ١٧٨) . ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة : « فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد » . « وهو لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية

الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه» (شخصية مصر ، ١٣ ، ١٤) .

ولنتوقف هنا قليلا لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ؛ جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يوليو فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر ، ووضح الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى ، ونظرا للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعا سياسيا مصيريا حضاريا له أبعاد دينية ، فابتعد عن العنصرية . ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يوليه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانات ، لأنها كانت ثورة برجماتية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة ، فضاع ما ضاع ، وجلس فيلسوفنا الحزين ينظر لها ، بينما كانت أمانة الدعوة والفكر « الاشتراكى » تمتلئ بموظفين قادرين على إصدار أى بيان يطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بينت الأيام) وبذلك وضع الفكر فى خدمة اللحظة و لم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيرا عن الوحدة العربية ، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التى يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية « بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية » بدلا من هذا يطرح مفهوما صحيا وصحيحا » للوحدة الإسلامية . « توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين لتذويب الفروق والفرق الحفرية

التى ورثها عن ماضٍ فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى ؛ التضامن السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة .. تلك جميعا هى المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامى سياسياً .. إنها فى كلمة « وحدة عمل » لا « وحدة كيان » . بل يمكن أن نضيف : وحدة مصير ، إلا أنها ليست دستورية ، فى كلمة أخرى : وحدة فكرية لا دستورية . أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث « دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة .. » فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير ، والأفريقية وحدة جوار ، فالإسلامية وحدة عقيدة (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٦) .

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية / الجغرافية ، الزمانية / المكانية ، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقترب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا ؟ وأين يقع اليهود ؟. يعبِّر جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجى المصرى كله فى إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالى

– من يسيطر على فلسطين.. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى .

وهـذه بالضبط « نواة نظرية الأمن المصرى » (ثلاثية حمدان ص ٢٢٨ » ، إن موقع مصر مهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل » خاصة وأنها « تريد أن ترث دور القناة نهائيا ، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى » ، ومن ثم يصبح المبدأ الإستراتيجى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء - تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعا ، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو » (ثلاثية حمدان ، ٢٢٨) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر « محكومـا عليها بالعروبة » (بعد أن دخل الجد الفرعونى المتحف) ، فهى « لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها ، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت » (ثلاثية حمدان ، ص ٢٤) . بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين فى منتصفه ، لكن بدلا من فلسطين التى توحد شطريه [والتى تمثل] نقطة عبور بينهما ، تظهر إسرائيل التى تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها » فهى « إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير » (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ١٧٥) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الثانية ، أى الدائرة الإسلامية . سنكتشف «إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى ، لا جغرافيا فحسب ، بل ودينيا أولا وقبل كل شيء . أن يكون العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحيا وموقعا ، فإن فلسطين - كمصر فى هذا الصدد - هى أرض الزاوية فى العالم الإسلامى طبيعيا . وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه - ما بين الصين شرقا والأطلسى غربا وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب أفريقيا جنوبا . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضا ودينا» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٨) .

ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية « فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب » ، وإنما يمتد من النيل إلى الفرات شرقا بغرب ، ومن الإسكندرية حتى المدينة شمالا بجنوب . وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب ، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات ، ويرادف قلب العالم العربى ، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥) . ولذا إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية ، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنفاذ فلسطين للعروبة والإسلام ، وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى « قومية المعركة » ، فإن من واجب العالم الإسلامى

كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى « إسلامية المعركة » (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٦ - ٢١٧).

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الآسيوية وهنا أيضاً سنجد إسرائيل « أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث .. أخطر مناطق التسليح الغربى .. ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان » . ويضع جمال حمدان ما يسميه « معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين / إسرائيل » .

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها ، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم الآسيوى / الأفريقى والتشكيل الاستعمارى الغربى . وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى ، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة الثانية . يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة «استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١١٩» أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ،

ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة « فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً ، ورأس جسر ثابت استراتيجياً ، ووكيل عام اقتصادياً وعميل خاص احتكارياً (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٥) . ولذا فإن الصهيونية « اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحدٍّ يواجهه العالم الإسلامى المعاصر ، تماماً كما يواجهه العالم العربى : أكبر من صليبيات العصور الوسطى ، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوروبى الحديث التى غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الاستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعى والأخطبوط الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى ، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقاً بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ – الاستعمار الصهيونى « استعمار عميل » ، فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علناً (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٦) . « من هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخياً على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن

اليهودى قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانا لبقائه » . (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٦٨) .

٢ – إسرائيل استعمار سكنى فى الدرجة الأولى ، فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوروبية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخياً ، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢) .

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أن ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكنى :

(أ) إذا صح أن نميِّز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى استراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى » (**استراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢) .

(ب) تتميَّز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى ، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج ، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هى كاستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً محققاً من إبادة الجنس ، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل الجنسى ، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث إنما طردت السكان الأصليين خارجها تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها» (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

(ج) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية «فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الاستيطانى [(الإسرائيلى) عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره » (إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٤) . وإسرائيل بهذا كله أعلى أم نقول أدنى ؟ مراحل الاستعمار السكنى ، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال . والاجتثاث والإبادة (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣) .

٤ — إسرائيل استعمار توسعى أساساً ، « وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة ، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Eretz-Israel » هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ

المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة. وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني في آن واحد ، إزاء عدوان آت واقع وعدوان سيقع في أي آن (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٤) .

٥ – أدّى كل هذا إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي تمامًا ، فقد تعيَّن في حالة إسرائيل ، أن تصبح حدودها هي جيوشها ، وجيوشها هي حدودها (**استراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٤) . «كما أن وجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة فما قامت ولن تبقى – وهذا تدركه جيدا – إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها ، و «أمن إسرائيل» هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبَّر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادي ، فهذا أساسي في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣) .

متحف الأجناس :

إسرائيل كما أسلفنا استعمار سكاني مبني على نقل السكان (اليهود) من الخارج إلى فلسطين ، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية ، ومن هنا اليهود أنثروبولوجيًا . وجمال حمدان كما أسلفنا – يرفض وحدة العلوم ، لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان

والحشرات والأحياء ، ولذا فهو لا يشيؤ ما هو إنسان ، أى لا يراه باعتباره شيئًا ، أى لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها . كما أنه لم يشيؤ مصر أو العالم العربى والإسلامى ، ولم يشيؤ الجغرافيا فى علم طبيعى ، ولم يشيؤ إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى ، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية) ، فهو أيضًا لا يشيؤ اليهود .

لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود) . فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم ، مقصور عليهم سُمِّى «الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد ، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود ،كما يضع أى ظاهرة أخرى ، فى النقطة التى يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء . فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية العامة ، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم : العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى عودة .. إلى فلسطين بالاغتصاب ، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . تمثل جسمًا غريبًا دخيلاً مفروضًا على الوجود العربى ، أبدًا غير قابل للامتصاص .. فهم ليسوا عنصرًا جنسيًا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس

فى العـــالم كما يدرك أى أنثربولوجى «(ص١٧)» . إن يهود العـــالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعيدا عـــن أى أصـــول إســـرائيلية فلسطينية قديمة «(ص١٨١)» .

هذه هى الصـــورة العامة ، ولكن هناك دائما الخاص ، «وإذا كـــان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات مـــن هـــذا التخليـــط» (ص١٨١) . وبعد أن يبين هذه المراحل وتلك الدرجات يخلـــص إلى « أن اليهود إنما هم أقارب الأنجليز والأمريكيين ، بل هـــم فى الأعـــم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما وإن اختلف الديـــن . ومن هنا فإن اليهود فى أوربا ،أمريكا ليـــوا كما يدعـــون غربـــاء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نســـلا وســـلالة ، لا يفرقهم عنهم ســـوى الدين (ص١٨٣) .

هذه هى النتيجة النهائية ، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعـــات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التى يسمونها «الأكاذيب الحقيقية)» ، وإنما من خلال دراســـة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة . أنظر – على سبيل المثال – دراســـته لشكل الرأس باعتباره أهـــم المؤشـــرات علـــى النقـــاء ، أو الخلـــط (ص ٤٢ – ١٤٦) . يعرض حمدان للقضية من خلال بنـــاء منطقـــى واضح يختبره دائما من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة . وهـــو فى دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعـــها . ففى أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصـــراع بـــين

الدولتين العبريتين (٥٨-٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتناولهم في عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم [ص٦٣] وتوزيعهم [ص١٠٤] وأعدادهم [ص١٠٥] وخروجهم من العالم العربي) .

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها في سياق العلم العام . فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التي يوجدون فيها ولا يوجد أي داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر . فكما أن إسرائيل استعمار استيطاني إحلالي شأنه شأن أي استعمار استيطاني إحلالي يمكن دراسته داخل إطار حركيات تاريخ الاستعمار الغربي . فاليهود هم أيضا بشر ، يمكن دراستهم داخل إطار حركيات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر . وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التي استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود ، على سبيل المثال ، على أنهم في حالة شتات دائمة ، يهيمون على وجههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج في مجتمعاتهم . لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة ، ويبين أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهليلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية . لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدول المكابية للتصدى للنزعة الهيلينية ، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية «وانتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى في كل العالم الهليني البيزنطي» . هذا الانتشار لم يكن تعبيرا عن شتات أبدي وتجوال لا نهاية له ، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية .

ولذا نجد أن «فى مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود» (ص٦٦) ، هذا قبل سقوط الهيكل ، أى أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت / انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود فى الحضارة الإغريقية ، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

من المعلومات المتناثرة إلى الأنماط المتكررة !

لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصا ، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء ، فهو دائم البحث عن أنماط ، ذات معنى ومغزى ، كامنة فى التفاصيل . وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء ، ٣١ وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة ، فبعد أن يأتى بحشد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود فى العالم وتوزيعهم ، يطرح السؤال التالى : «ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات ؟» . وما هى «ملامح الصورة العامة» . الإجابة هى أن «أوربا عمليا هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق إلى الغرب : دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية ، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك «(ص٩٤)».

هذا هو الإطار العام ، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية «فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها ، اليهود فى الإطار الكوكبى هم ظاهرة قزمية» (ص٩٦) . وانتشار اليهود فى أنحاء العالم ليس انتشارا كميا أو تمددا أفقيا وإنما يتبع هو الآخر نمطا محددا ، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يلاحظ اتجاههم «نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال أفريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم» (ص١٠٩) .

وينتقل حمدان من أنماط التوزيع فى العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر ، فيبين أن «اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة ،ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها . وهذا حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولا تتبلور فى وقتنا هذا . والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل أوضحها فى الذهن المثال الأمريكى» (ص١٠٩) . وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن» .نعم ولكنه ليست أى مدن وإنما «مدن كبرى» وهى ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم» . ثم يضع

يدنا على النمط الذى يربط التعميم المجرد بالتفاصيل المتعينة «ويهود دولة ما» هم عادةً «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها» . وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفاصيله ، ثم تنتهى المقطوعة بالإشارة إلى تاريخ اليهود قديمًا وحديثاً وأخيرًا إلى المثال الأمريكى المتعيِّن . يبيِّن حمدان أن اليهود يقيمون أساسًا فى نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى . ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التى يسميها (بروح الدعابة التى لا تفارقه) ، رغم نبرته الجادة) «تل أبيب الكبرى ، بل إنها إسرائيل الكبرى» . ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول : «إن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبًا طرديًا مع أحجامها ، فهم أقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو ، بيما لا وزن لهم مثلاً فى بوسطن (ص١١٢) . ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل «هل تريد مزيدًا من الأمثلة ؟» وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطى قارئه عشرات الأمثلة : تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدنى ، أى إنه يختبر بنفسه النمط العام الذى طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفاصيل ليبيِّن مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التى يستحقها .

ثم يصل حمدان إلى فلسطين ، دائما فلسطين ، مركز اهتمامه وسر انشغاله باليهود : «حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥.٩% من سكان إسرائيل يتكدسون فى المدن . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية .

بـــهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية urbanism لكنها ببـــلطة «حثالة مدن» العالم انصبت واستُقطبت فى دولة» (ص١١٣) . قد تتفق معه وقد تختلف ، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه . قـــد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأنماط متعسفة قليلاً أو كثيرًا ، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم ، قد تقـــول إن استخدام عبارة «حثالة مدن» انحراف عن المنهج العلمى المحـــايد أو البارد ، قـــل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلـــك أن تقـــر عينـــاك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمـــون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول ، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمـك كيف تنفض ، عن نفســـك غبار التلقى ، وها أنت ذا تجـــد نفســـك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التى تبدو وكأن لا معنى لها ولا دلالة ، أى إنك الآن منشغل بالحقيقـــة لا بالحقائق والوقائع ، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد فى الحقائق وإنما الأنماط التى يستخلصها عقل الباحث ، وأن عليه (إن كان حقًا محبًا للحقيقة وليس عبدًا للحقائق) أن يكد ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر :

أشـــرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهـــود فى المكان ، ولكن تظـــل الصورة فى حاجة إلى مزيد من الظلال ، حتى لا نقع فى عالم الأشـــباح العامة ، حتى نتنقل من مجرد النحاتيف أو أشعة إكس التى لا تنطـــق إلا بالقوانين العامة المـــادية (الخاضـــعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة الـــتى رسمتها يد إنسان ولذا فهى قادرة أن تنطق بالعام والخاص ، وأن تحيـــط

بالكم والكيف والزمان والمكان ، وبما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال إستراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبيته، لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهنى والوظيفى ويُلاحظ ابتعادهم عن «الزراعة أولاً وعن الصناعة إلى حدٍّ بعيد «(ص١٠٣) ، كما يُلاحظ أنهم يتركزون فى الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية الخ «(ص١٠٤)» ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق فى الزمان والمكان يبيِّن أنه «ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر» . وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديمًا كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة «التاجر» وحديثًا يحتشد اليهود فى الوظيفة الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك من «اليهود» (ص١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح نمطًا عالميًا ، «واليهودى» بهذا كله قد أصبح مركبًا اقتصاديًا - اجتماعيًا شديد الوضوح حتى ليُضرب به المثل وحتى اتخذ علمًا ونموذجًا على حالات مشابهة : كذلك مثلاً يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا» وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا» ! (ص ١١٦) ، أى أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل ، وتصبح الظاهرة اليهودية جزءاً من العلم العام ، علم اجتماع الأقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البُعد الديني . فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعًا دينيًا (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني ، فكما أن الدائرة الإسلامية هي إحدى الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدى الدوائر الأساسية للصهيونية وإسرائيل . ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها بأنها وحدها من بين الأديان السماوية ، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبداً . واليهودية قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل، وبحكم أن اليهودية ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه) (ص٩٧) . وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضاً من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبيِّن مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسيري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للاندماج ، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبيِّن أن «اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية» (ص ١٧٠) . ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا ، . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي «لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر» (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية ومن هنا «الدولة الجيتو» (ص ١٧٢) . وهذا التحليل يبيِّن التزام جمال حمدان

بالتعدية السببية ورفضه أن يعطى أولوية سببية لعنصر واحد . فظهور الدولة الصهيونية هو ولا شك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة ، ولكن هناك أيضاً عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة . ولذا لابد وأن تُرصد هذه الدولة لا فى إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب ، وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطاير ؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام ، ولذا فهو حريص على أن يبتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحث عن كلمات وعبارات محددة تعبِّر عن المنحنى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة («جغرافيا صماء») ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب («الرص والرصانة») أو الجمل المتناقضة (عدوان آنى واقع وعدوان سيقع فى أى آن) . وهناك النبرة الخاصة فى خطابه ، فهو قادر على أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارئ مباشرةً . ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة فى ذاتها، كما أنه مصرى صميم فى ولائه شبه الكامل للنكتة ، ولكنها نكتة تُوظَّف دائماً فى خدمة الرؤية !

انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر «أما الانفتاح الذى يرادف الانتفاخ ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة فى أعلى السلم الاجتماعى » (ثلاثية

حمدان ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ ، الذى هو فى جوهره شكل من أشكال الدعابة ، يعبّر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصرى . فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيراً استخدامه للمجاز . واللغة المجازية ليست زخرفا كما يتصور البعض ، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه . ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد فإنه كثيراً ما يلجأ للمجاز . وهذا فى حد ذاته تعبير أيضا عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التى تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية . ففى وصفه لتوزيع اليهود فى العالم يبيّن أنه ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر فى العالم يهوديًا» ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : «الأصح أن نقول: إن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيانا إلى تراب رمزى بحت» . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب» (ص ١٠٥). وفى مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول «الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعه عالمياً بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثوراً ، من النوى والنويات السديمية هنا وهناك» لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريبًا ، فقد أخذ صورة «نهر المجره» ليحوله إلى «منثور من النوى والنويات السديمية» (ص ١٠٥) ، بدلاً من النور الذى له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

أثر جمال حمدان :

هناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماماً وغير موضوعية تماماً) فى ذات الوقت (ثنائية حمدانية) وهى علاقتى ومدى تأثرى به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية والتى صدرت عام ١٩٧٥م . كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء فى أسلوب كتابته أم أسلوب حياته : هذا الزهد العلمى الشديد ، هذا الإعراض عن الدنيا الذى مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفى الضخم (ولعل هذا هو الذى شجعنى على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعى المعرفى) . ومن الفارقات التى تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعى الذى ترك الجامعة ، والمثقف الذى اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية .

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أننى حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأنى فى هذا شأن أى باحث ، ولكن يبدو أيضاً أننى استوعبت فى ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماماً دون أن أدرى . غير أنى لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيرى وتصنيفى جديد (والتى استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتى) وجلست لأتأمل فى مصادر فكرى . وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة ، فهالنى حجم تأثرى به فى طريقة تفكيره . لقد جاء فى كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت ،

واستبعدت ما استبعدت ، ثم تبدلت المعلومات وتحورت ، كما تتبدل المعلومات وتتحور ، ولكن بقى ما هو أهم : بقى فكره ورؤيته منهجه . فمن الواضح أننى تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية ، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس فى عملية التفكير العلمى . ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها فى نطاق العلم الإنسانى العام ووضعها فى عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة . ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتى (مثل د . إميل حورج – د . نور شريف – د . ديفيد ولبر) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل فى المعلومات وتفسيرها . لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف نجرد الحقيقة من الحقائق . ولا أدرى هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة على المقاومة ؟

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده فى سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته ، وإنما هو هناك بين السطور ، وهذا هو أعمق الأثر . ولكن مع سيطرة النموذج التراكمى المعلوماتى ، أهملت أهمية هذا النوع من التأثر فمجال البحث العلمى بالنسبة للكثيبين هو الحقائق وليس الحقيقة ، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها ، ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون دائماً عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عُدنا مرة أخرى لشركات النقل !) . وقائمة

المراجع فيما يُكتب من دراسات تدور فى إطار هذا النموذج المعلوماتى، مما يعنى أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين فى صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الإسهام لا يوجد فى سطر بعينه أو فى صفحة محددة ، وما يوجد بين السطور لا يُقاس ولا يُمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمى معلوماتى .

كما أننى يمكننى أن أثير قضية أخرى وهى لِمَ لَم يؤثر جمال حمدان فى هؤلاء الذين يكتبون دراسات فى نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكرى؟ يمكننى القول أن النموذج المعلوماتى التراكمى قد سيطر تماماً وحوَّل كل شىء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية ، يتناولها بنهم الكُتَّاب المعلوماتيون. وأعتقد أن معظم ما يُكتب هذه الأيام يُكتب صدوراً عن هذا النموذج ، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة ، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقى لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره ، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) فى توصيله . ولابد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثى ونبيِّن ما أنجزه منه وما لم ينجزه فهناك أجنده بحثية بين السطور علينا أن نصل إليها ونبيِّنها للأجيال . إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلى جديد ، لم يلتزم به هو نفسه أحيانًا ، وهذا هو شأن الرواد دائماً . علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثى

يحوى الإشكاليات الأساسية التى طرحها جمال حمدان ، ثم تكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدراً وتكتسب عزاته معنى ، ويتحول إنجازه الفكرى الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تُسحب من الخزائن فى المناسبات العامة ليُكرَّم اسم صاحبها ثم تُعاد مرة أخرى ، لتستمر فى الرقاد ! يتحول هذا الإنجاز الشامخ إلى رصيد حى يُضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكرى فيزيدها علما وحياة .

obeikandl.com